الفوائد الجنية من الهجرة النبوية (١)

سلمان بن يحي المالكي

مقدمة السلسلة

في جوٍ مشحونٍ بزيفِ الباطل وركامِ الجاهلية ، يسوسُ الناسَ جهلهم ، ويحكمُهم عرفُهم وعاداتُهم ، قتلٌ وزنا ، عُهُرٌوخَنا وأدٌ للبنات ، تفاخرٌبالأحساب والأنساب ، سادَ في البِقاعِ قانونُ الغاب ، فالبقاءُ للقوي ، والتمكينُ للعزيز ، تُغيرُ القبيلةُ على الأخرى لأتفهِ الأسباب ، تقومُ الحروبُ الطاحنةُ ، تُزهق الأرواحُ ، وتُهلَك الأموال ، وتُسبى النساءُ والذراري ، وتدومُ السنون وتتعاقبُ الأعوام ، والحربُ يرثها جيلٌ بعد جيلٍ ، وأصلها بعيرٌعُقْر ، وفرسٌ سبقتْ أخرى ، أو قطيعُ أغنامٍ سيقٌ وسرْق ، ساد في ذلكمُ المجتمعُ عاداتٌ غريبةٌ عجيبة ، فعند الأشراف منهم كانتِ المرأة إذا شاءتْ جمعتِ القبائلَ للسلامِ وإن شاءت أشعلتْ بينهم نارَ الحربِ والقتال ، بينما كان الحالُ في الأوساطِ الأخرى أنواعٌ من الاختلاطِ بين الرجلِ والمرأةِ لا نستطيعُ أن نعبرَّ عنه إلا بالدَعارةِ والمجونِ والسِفاحِ والفاحشةِ ، كانت الخمرُمُمتَدحُ الشعراء ، ومَفخَرةُالناس ، فهي عندهم سبيلٌ من سُبُلِ الكرم ، ناهيك عن صورِ الشركِ وعبادةِ الأوثان ، التي تُصوّرُ كيف كانَ أولئكَ يعيشون بعقولٍ لا يفكرون بها ، وأعينٍ لا يبصرون بها ، وأذانٍ لا يسمعون بها إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ في هذه الأثناءِ حدث حادثٌ عجيبٌ لمكةَ وحرمِها ، رأى أبرهةُ نائبَ النجاشي على اليمنِ أن العربَ يحجونَ الكعبةَ ، فبنى كنيسةً كبيرةً بصنعاءَ ليصرفَ حجَّ العربِ إليها ، وسمع بذلك رجلٌ من بني كِنانة ، فدخلها ليلاً ولطَّخَ قِبلتها بالعَذِرة ، ولما علم أبرهةُ بذلك ثار غضبه وسارَ بجيشٍ عرمرمٍ عدده ستونَ ألفَ جنديٍ إلى الكعبةِ ليهدمها ، واختار لنفسه فيلاً من أكبرِ الفيلةِ ، وكان في الجيشِ قُرابةَ ثلاثةَ عشرفيلاً ، وتهيأ لدخولِ مكةَ فلما كان في وادي محسِّرٍ بين مزدلفةَ ومنى بركَ الفيلُ ولم يقُم ، وكلما وجهوه إلى الجنوبِ أو الشمالِ أو الشرقِ قام يهرول ، وإذا وجهوه قِبَلَ الكعبةِ بركَ فلم يتحرك ، فبينما هم كذلك إذ أرسل الله عليهم طيرًا أبابيل أمثالُ الخطاطيف مع كل طائرٍ ثلاثةُ أحجارٍ مثلُ الحُمُص ، لا تصيبُ أحدًا منهم إلا تقطعت أعضاؤه وهلك ، وهربَ مَن لم يصبه منها شيءٌ يموجُ بعضهم في بعض ، فتساقطوا بكلِ طريقٍ ، وهلكوا على كل مهلكٍ ، وأما أبرهةُ فبعثَ الله عليه داء تساقطت بسببه أناملُه ، ولم يصِل إلى صنعاءَ إلا وهو مثلُ الفرخِ ، وانصدع صدرُه عن قلبِه ثم هلك ، وكانتْ هذه الوقعةْ قبل مولدِ النبي بخمسين يومًا أوتزيد ، فأضحت كالتقْدُمةِ قدَّمها الله لنبيه وبيتِه ، وبعد أيامٍ من هلاكِ ذلكم الجيشِ أشرقت الدنيا وتنادت ربوعُ الكونِ تزُفُ البشرى بولدِ سيدِ المرسلين ، وإمامِ المتقين ، والرحمةِ للعالمين في شِعْبِ بني هاشمٍ بمكةَ صبيحةَ يومُ الإثنين التاسعِ من ربيعٍ

الأولِ لعامِ الفيل ، وُلد خيرُ البشر ، وسيدُ ولدِ آدم ، ولد الرحيمُ الرفيقُ بأمته ، أطلَّ على هذه الحياةِ محمدُ بنُ عبد الله بنُ عبد المطلبِ الهاشميِ القرشي ، أرسله الله إلى الناس جميعا ليقول للناس " إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون " جاء النبيُ صلى الله عليه وسلم يدعوا الناسَ إلى شهادةِ أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله بكل ما تضمنته هذه الشهادة من معنى ، جاء نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم يدعو الناسَ إلى العفافِ والطهرِ والخلقِ الكريم والاستقامةِ وصلةِ الأرحام وحسنِ الجوار والكفِّ عن المظالم والمحارم ، يدعوهم إلى التحاكمِ إلى الكتابِ العزيز لا إلى الكهان وأمرِ الجاهلية ، وجعْلِ الناس كلهم أمام شريعةِ الله سواءً يتفاضلون بالتقوى ، روى ابنُ جريرٍ عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما قال " لما مرِضَ أبو طالبٍ دخلَ عليه مشيخةٌ من قريشٍ فيهم أبو جهلٌ فقالوا : إنَّ ابنَ أخيك يشتُمُ آلهتَنَا ويفعلُ ويفعلُ ويقولُ ويقولُ فأنْصِفْنَا من ابنِ أخيك ، فلْيَكُفَّ عن شتمِ آلهتِنا وندَعُهُ وإلهُهُ ، فقال أبو طالبٍ : يا ابنَ أخي ما بالُ قومِكَ يشكُونَكَ ويزعُمُون أنكَ تشتُمُ آلهتَهم ..؟ قال يا عم : أريد أن يقولوا كلمةً تَدِينُ لهم بها العربُ ، وتؤدي لهم بها العجم الجزية ، فقال أبو جهل : نقولُها وعشرًا ، فقال عليه الصلاة والسلام : قولوا لا إله إلا الله ، ففزِعوا وولوا مدبرينَ وهم ينفُضُون ثيابَهم ويقولون : أجعل الآلهةَ إلهً واحدًا إنّ هذا لشيء عجاب " نعم .. لقد دعا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الناسَ كلَّهم إلى هذا المعنَى العظيم ، وقام بهذا الواجبِ الكبيرِ الذي هو أكبرُ واجبٍ في تأريخ البشريةِ كلها ، دعا إلى دينٍ قويمٍ يرقى به الإنسانُ إلى أعلى المنازلِ ، ويسْعَدُ به في الآخرةِ سعادةً أبديةً في النعيمِ المقيم ، فاستجاب له القلة المؤمنة المستضعفة في مكة ، فأذاقَهُمُ المشركونَ أنواعَ العذاب ، ووقف في وجههِ ثلاثةُ أنواعٍ من الناس : المستكبرونَ الجاحدونَ العالمونَ بالحق ، والحاسِدونَ المحترقون ، والجهالُ الضالون ، وكوّنَ هذا الثالوثُ جبهةً عنيدةً وحربًا وحزبًا شيطانيًا لا يترُكُ من سبيلٍ ولا وسيلةٍ إلا سلكها للصد عن سبيل الله) يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولوكره الكافرون (واشتدَّ الكربُ بمكةَ وضُيِّقَ الخِناقُ على الدينِ الإسلامي ، وائتمرَ المشركونَ بمكةَ أن يقتلوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال جبريل عليه السلام " إن الله أذن لك يا محمد بالهجرةِ إلى المدينةِ فلا تَبِتْ هذه الليلةَ في فراشك " ورصده المشركونَ عند بابه ليضربوه ضربةَ رجلٍ واحدٍ ليتفرقَ دمَه بين القبائلِ ، فخرج عليه الصلاةُ والسلام عليهم وهو يتلو صدرَ سورةِ يس وذرى على رؤوسهمُ الترابَ وأخذ الله بأبصارهم عنه فلم يروه ، وأخذهمُ النعاسَ ، واختبأ هو وصاحبَه أبو بكر الصديقِ في غارِ ثورٍ ثلاثةَ أيامٍ حتى هدأ الطلبُ ، ففتشتْ عنه قريشٌ في كلِ وِجْهَةٍ، وتتبعوا الأثرَ حتى وقفوا على الغارِ فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسولَ الله لو أن أحدَهم نظر إلى موضعِ قدميه لأبصرنا ، فقال " يا أبا

بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما " ولقيا الدليلَ بعد ثلاثٍ براحلتْيَهما ، ويمّما المدينة فكانت هجرةُ المصطفى صلى الله عليه وسلم نصرًا للإسلام والمسلمين حيثُ أبطلَ الله مكرَ المشركينَ وكيدَهم في تفكيرِهِمُ القضاءَ على الإسلامِ بمكةَ وظنَّهُمُ القدرةَ على قتلِ رسول الله